احتفالية الختان في مصر

شوقي عبد القوي عثمان حبيب

القاهرة

إن الختان من أقدم الممارسات التي استمرت ولا تزال متصلة عبر السنين. توصل إلى فائدته البشر منذ آلاف السنين وقبل الديانات السماوية. وأقرته تلك الديانات ومارسته. ويمكن القول أن الختان عرف منذ الدولة القديمة وكان عاما، إذ تبينه الباحثون في المناظر العادية للخدم والصيادين والرعاة كما تبينوه في التماثيل العادية والخاصة والجثث السليمة الباقية. ومن أطرف نصوص الختان التي وجدت – نص لرجل من عصر الانتقال الأول – استنتج دونهام منه أنه كان قد اختتن مع مائة وعشرين طفلا ولم يضار واحد منهم. غير أن قراءته لا تخلو من شك ولو صحت لأمكن تقريب هذه الرواية لما يحدث في موالد الأولياء بمصر حتى الآن حيث ينتهز البعض المولد فيختنون أولادهم تبركا بمناسبتها (صالح ١٩٦٦:٥٢-٥٣).

ولقد أقرت الديانات السماوية الختان وإن تفاوتت درجة الأخذ به، فبينما نجد أن اليهود والمسلمين اعتبروه ملزما نجد أن المسيحيين انقسموا حوله. وجدير بالذكر أن اتباع الكنيستين القبطية والحبشية لا زالوا يقومون بإجراء الختان كميراث مصري قديم (الهواري ١٩٨٧:٨٤). أما العرب فقد عرفوا الختان قبل الإسلام واستمرت ممارسة الختان بعد ظهور الإسلام رغم عدم ورود ذلك في القرآن الكريم، لكن جاء ذكره في بعض الأحاديث التي اعتبرته واحدا من خصال الفطرة.

وإذا انتقلنا إلى احتفاليته في مصر فسنجد أمامنا نقصا في المعلومات في بعض العصور التاريخية. فالمصادر التاريخية تحدثنا عن وجود عملية الختان في مصر القديمة كما سبق، ولكن لا تحدثنا عن احتفال يصاحب تلك العملية ولعل ذلك يعني أن الختان في ذلك الوقت كان لا يصاحبه احتفال. وفي عصور مصر البطلمية والرومانية والقبطية لم نعثر على أثر أو كتابة تتحدث سواء عن عملية الختان أو عن الاحتفال به. ولا يعني ذلك أن الختان لم يكن موجودا في مصر في تلك الفترة ولكن من تناولوا التأريخ لتلك الفترة لم يوفّوا التاريخ الاجتماعي للمصريين حقه. ويشبه ما سبق من عصور في فقد الكتابات الاجتماعية أيضا العصر العثماني في مصر. أما الكتابات عن الختان في مصر في عصرها الإسلامي خاصة المملوكي فهي إلى حد ما متوفرة ولكنها لا تروي نهم الباحث، ولكن نستطيع القول بأن باحثي تلك الفترة استخرجوا أغلب ما في بطون المصادر، لذلك أراني مضطرا لترك تلك الفترات السابقة بادئا بالعصر الإسلامي. كان الختان لا يمر مرورا عابرا، بل كان أمرا عظيما يحتفل به، واحتفل به الكافة من غني وفقير وأمير ووضيع. كما كانت تلك العملية تجرى لمجموعة من الأطفال في وقت واحد وتجرى لطفل واحد أيضا.

وكان بعض الحكام يقومون – بهذه المناسبة – بالإغداق على الشعب بالمنح والعطاياوكذلك الأمراء لأتباعهم والأغنياء للفقراء، كما كان مناسبة لفعل الخير وإطعام الطعام كما كان يهنأ عليه، فنجد لدى القلقشندي نموذجا لرسالة تهنئة أمير بختان ولدين له (القلقشندي، صبح ٩، ٧٥-٧٤).

وفي العصر المملوكي أجمعت مختلف الطبقات على الاحتفال بختان الطفل، حيث جرت العادة على أن يقوم المزين بعملية الختان في عصر المماليك وعندئذ يقيم أهل الطفل حفلا كبيرا يدعون إليه سائر الأهل والأصدقاء. ولا بد للمدعوين في هذه المناسبة من تقديم النقوط[1] لأهل الطفل حيث يوضع في الطشت الذي يختن فيه الولد.

---

[1] النقوط هو عبارة عن عطية عينية أو مالية تقدم من الأهل والأصدقاء.

THE ARABIST. BUDAPEST STUDIES IN ARABIC 18 (1996)
https://doi.org/10.58513/ARABIST.1996.18.4

وإذا كان الختان خاصا بأحد أولاد السلطان نادى المنادي بذلك في القاهرة حتى يحضر الأمراء والناس أولادهم ليختنوهم بعد ابن السلطان. وبلغ أحيانا عدد الصغار الذين أحضرهم أهلهم ليختنوهم بعد ابن السلطان أكثر من ألف وستمائة طفل من أبناء الفقهاء والعوام، هذا خلاف أبناء الأمراء والجند، وكثيرا ما طالت الأفراح بهذه المناسبة، فاستمرت أحيانا بين ثلاثة أيام وسبعة، يأمر السلطان خلالها بعرض الجند والقيام ببعض الألعاب لإظهار الفرح، كما كان يوزع كثيرا من الهبات والأموال والخلع (عاشور ١٩٦٢:١٢٤-١٢٥).

ويمضي الزمان وتستمر عادة الختان والاحتفال بها، فيصف دي شابرول ما يحدث في أوائل القرن التاسع عشر. ووصف لنا الجبرتي احتفالات كبراء القوم بالختان وأما لين فوصف احتفالات المصريين بالختان في أوائل العقد الرابع من القرن التاسع عشر. وبعد لين بحوالي عشر سنوات يأتي جيرار دى نرفال ليصف لنا حفل ختان في قرية صغيرة في ذلك الوقت هي شبرا. ويأتي كلوت بك بعد جيرار ويذكر في كتابه وصفا لاحتفال الختان، ولم يذكر أين تم هذا الاحتفال. ويأتي ليدر في عام ١٩١٤ ليكتب عن عادات المسيحيين في الصعيد. وتأتي وينفريد بلاكمان إلى الصعيد بعد ليدر بأقل من عشر سنوات لتجمع مادة كتابها.

ولكن ماذا عن العصر الحديث وما نعنيه هنا قبل عقدين أو ثلاثة من الآن. دفعنا هذا إلى التجول في بعض أنحاء مصر المتباينة جغرافيا وثقافيا والممثلة على قدر المستطاع لمختلف المناطق الجغرافية لكي نرى احتفالات أهل هذا الزمان - مسلمين ومسيحيين - الخاصة بعملية الختان أو المصاحبة لها ومقدار التشابه والتغير وعوامل هذا أو ذاك بالإضافة إلى الدوافع وراء كل ما ذكر.

ولهذا سنلتقي ببعض من شاركوا في هذه الاحتفالية أو شاهدوها في مواطنهم، حيث راعيت أن يكون الراوي أو المشارك من نفس المدينة أو القرية.

ومن أقدم أحياء القاهرة حي نشأ كميناء نهري وقاوم الفرنسيين واشتهر بالفتوة ونسب إلى أحد الأولياء هو حي بولاق أبو العلا. ولمكانة سيدي السلطان أبو العلا في نفوس أهل الحي خاصة كان ولا بد غالبا أن يكون السلطان نقطة البدء، ولنبدأ من البداية. تتم هناك عملية الطهور سواء للولد أو البنت سرا خوفا من الحسد، وليست هناك سن محددة للطهور فيمكن أن يكون عمر المطاهر شهر أو خمس سنوات، كما أنه في أحيان كثيرة يتم عملية الطهور لمجموعة من الأطفال مرة واحدة وليس شرطا أن يكونوا أقرباء، فيمكن أن يكونوا من بيت واحد أو من حارة واحدة، أو جيران، أو معارف. وكانت القلفة أو البظر ترمى في النيل اعتقادا بأن هذا يجعل الجرح يشفى سريعا وربما خوفا من السحر. والايام التي تلي الطهور لا يحدث فيها أي شيء؛ لا طبل ولا غناء خوفا أيضا من الحسد أو مرض الطفل نتيجة لنظرة عين، ويستمر هذا التعتيم حتى اليوم السابع. اليوم السابع هو يوم الإعلان عن أن هناك طهورا قد تم، فيدعى الأهل والجيران على الغذاء حيث يتم ذبح أحد ذوات الأربع أو شراء لحمة وذلك حسب المقدرة، بالإضافة إلى تناول المدعوين للطعام سواء طعام الغذاء أو العشاء ويطهي صاحب الحفل فتة باللحم ويرسلها إلى جامع السلطان أبو العلا، والبعض يرسلها الى السيدة زينب أو سيدنا الحسين للفقراء. وتقوم السيدات والرجال بتقديم النقوط سواء للأم أو الأب، أما المزين الذي قام بطهارة الولد أو البنت قبل ذلك بسبعة أيام فكان يأخذ نقوطه في حينه من أهل المطاهر فقط، حيث - كما سبق القول - كانت العملية سرية. تبدأ الزفة من عند جامع أبو العلا قبيل المغرب حيث يمتطي فارس هذه الزفة حصانا، مرتديا جلبابا أبيض وعقالا تحته شال أبيضا فوق الرأس وإذا كان الفارس صغيرا يركب وراءه رجل كبير لكي يمسك به خوفا من وقوعه ويقود الزفة الضو[٢] بفرقته المكونة من حوالي عشرة أفراد بطبولهم

---

[٢] الضو اسم شهرة لأحد الأفراد في حي بولاق وهو الذي كان يقود زفة المطهرين كما كان يحيى أفراحهم بالإنشاد الديني.

ودفوفهم وحناجرهم حيث يقومون بدورة حول الجامع تبدأ من اليمين ثم ينطلقون الى مكان الفرح. ويسير الرجال خلف الفرقة التي تنشد وبجوارها، وبعد ذلك النساء اللواتي يزغردن ويختلط الصغار بهم ويتقدمهم فارس هذا اليوم. وتصل هذه الزفة إلى مكان الاحتفال حيث نصب صوان وضعت به كراسي للمدعويين، وتنشد الفرقة بعض الأناشيد، وفي بعض الأحيان تحي الفرقة هذا اليوم وفي أحيان لخرى تكتفي بالزفة وببعض الأناشيد الدينية ثم تستكمل الليلة فرقة غنائية أخري وعلى رأسها عالمة – علي حسب رغبة صاحب الحفل – ويستمر ذلك إلى وقت متأخر من الليل. وكانت الناس تتنافس في تقديم النقوط للفرقة والعوالم. وفي بعض الأحيان كانت الزفة تبدأ من عند السيدة زينب أو سيدنا الحسين وتلف حول السلطان أبو العلا وغالبا ما يحدث ذلك إذا كان هناك نذر. هذه الزفة تتم إذا كان المطهر ذكرا، أما إذا كانت أنثى فالزفة تكون في الحارة أو الشارع فقط ولا تبدأ من عند السلطان، وكان يتم الاحتفال بطهور الأنثى أيضا ولكن ليس بنفس الصورة التي يحتفل بها للذكر، واستمر ذلك نحو عشرين سنة مضت. أما الآن فقد اختفت تقريبا تلك الزفة وأيضا مظاهر الاحتفال حيث نشاهد بين الحين والحين حفلا لطفل مختون خاصة في مولد السلطان أبو العلا، ولكن ليس بنفس الصورة أو الفرحة كما كان يحدث من قبل[٣].

وتختلف الزفة في أبو قير بالإسكندرية عن زفة بولاق أبو العلا حيث تكون الزفة بالكاريتات، فيلبس العريس طاقية وقفطان أبيض مشغول عليه خمسة وخميسة بالخيط الأحمر المزوي، ويكتب على القفطان أيضا الله أكبر، وتتم الزفة بالكاريتات – التي يتراوح عددها حسب مكانة العريس ومجاملة أبيه للأخرين في مناسباتهم – في شوارع أبو قير، وتنطلق الأغاني والزغاريد من الكاريتات، والزفة تتم بالنسبة للذكور فقط. وقبل الزفة يجتمع الناس في منزل المطهر[٤] حيث يقدمون نقوطهم لوالدي العريس، والنقوط عبارة عن نقود أو سكر وشاي أو أي شيء مما يخزن في المنازل[٥]. وبسؤال الراوي هل كان المسيحيون يفضلون تختينهم في يوم عيد الختان؟ أجاب: العادة تعلو على كل شيء، والعادة هنا أن الميعاد الأفضل للطهور – من زمن سابق لا نعيه ولكننا توارثناه جيلا بعد جيل – هو أثناء وفاء النيل وفيضانه الذي يعني الطهارة. وكان موعد الفيضان هو شهري أغسطس وسبتمبر بالتقويم الميلادي، ويقابله مسرى من الشهور القبطية[٦]. "فلما كانت مية النيل تحمر كانت الناس تقول الوقت ده كويس للطهارة فالجرح يطيب بسرعة". ففي وقت الفيضان كانت معظم الناس من مسيحيين ومسلمين تقوم بطهارة أبنائهم حيث أن الجرح في الشتاء لا يشفى سريعا[٧]. وفي يوم الطهور يدعى الأهل والأحباب ويحضر الأطفال الذين يغنون ويدعون

---

[٣] زينب حسن سلطان، عالمة سابقة، بولاق أبو العلا، الجامع شوقي عبد القوي عثمان، مارس ١٩٩٥.

[٤] يتم علاج جرح المطهر بأن يشترى مر وزيت زيتون أو زيت عادي حوالي نصف كوب وصبر سوقطري ومستكة حرة ويغلى الزيت على النار ويوضع ما سبق على الزيت إلى أن يذوب ويترك ليبرد ويحفظ ذلك في زجاجة، وكل يوم يمس للطفل في الصباح وفي الليل حتي يشفي الجرح. وبالنسبة للبنت يحضر شيح وبصلة مشوية ويأخذ قلب البصلة ويدق القلب في الهون ويخلط ذلك ببعض السكر والشيح وتتحفظ بها البنت حتى تحفظها من البرد والرطوبة. نوال محمد مصطفى، ٦٢ سنة، قابلة، أبو قير، الإسكندرية. الجامع شوقي عبد القوي، ١٩٩٤.

[٥] نوال محمد مصطفى، فتحية محمد أحمد، ربة بيت، أبو قير الاسكندرية. الجامع شوقي عبد القوي ١٩٩٤.

[٦] مثل النيل وفيضانه دورا كبيرا في حياة المصريين حيث كان يصاحب الفيضان الخصب والنماء، كما أن مياه الفيضان كانت تغسل النهر وتجعله نظيفا بالإضافة إلى أنها تحيى الأرض بعد مواتها. ورغم ما كان يمثله الفيضان من عبء على المصريين لخطورته أحيانا فإنهم كانوا ينتظرونه دوما بشغف ولهفة.

[٧] ذكر ليدر كما سبق أن المصريين كانوا يجرون الختان في سبتمبر بعد موسم الحصاد حيث تتوفر النقود معهم ومعلوم أنه في شهر سبتمبر يكون بعض الفلاحين قد انتهوا من تذرية القمح والذرة لا زالت في الحقول لم تتضح بعد. ومعروف أن القمح ليس محصولا نقديا بالنسبة لفلاح هذا الزمان أو الآن حيث كان يخزن أكثره للاستهلاك، أما المحصول النقدي فكان القطن ولذلك فما ذكره عن اعتقاد المصريين في فترة الفيضان وخواص مياهه هو الأقرب للتصديق.

لعريس هذا اليوم بأدعية جميلة. وغالبا ما يشارك الأطفال كمرددين خلف من هم أكبر منهم سنا. وفي اليوم المحدد لإجراء عملية الطهور كان أهل الطفل يحاولون خداعه لكي لا يقاوم أثناء إجراء العملية ويحضر المزين كضيف وتتم العملية بسرعة، هذا إذا كان الطفل صغيرا؛ أما إذا كان كبيرا ويدرك، فيحاولون إقناعه بأن الطهارة علامة على الرجولة وأنه لن يشعر بألم فهي تشبه قرصة النملة. وكان الحاضرون يقومون بتقديم النقوط للمزين الذي كان يردد أسماء مقدمي النقوط مقرنا بها التهنئة المباركة – كما كانوا يقدمون النقوط لأبوى المطهر وبهذا ينتهي يوم الختان. وكان يحتفظ بالقلفة حيث توضع في حجاب ويعلق أو يوضع تحت الوسادة، والحجاب كان يوضع في كيس من القطيفة، وبعض الناس يضعون مع الحجاب أدعية دينية مكتوبة على ورقة، وهذا تعبيرا عن الامتنان لله على أن العملية تمت بنجاح. وسر الاحتفاظ بها أنها جزء من جسم الإنسان. ويبدأ الاحتفال في اليوم السابع حيث كان يلبس المطهر جلابية بيضاء مشغولة باليد ومزينة بالصليب، والآن يلبس بلوزة وبنطلونا وأحيانا صديريا مطرزا بالماكينة ومزينا بالصليب وحذاء أبيض. والآن يقدم الأهل والأحباب هدايا عبارة عن شيكولاته أو لعب أو ملابس وقبل ذلك كانت الهدايا عبارة عن شاي أو سكر أو ما يشابه ذلك. وكانت الأولاد تصطف وتجلس وتردد الأغاني خلف إحدى المغنيات من أهل العريس أو من الجيران، المهم سيدة أو بنت تجيد الغناء. ويكون الطفل محمولا بين يدي أقرب الناس إليه وعادة لا تكون الأم، لأنها تكون خائفة عليه. ويلف به على الحاضرين الذين يغنون ويهنئون. وفي المساء يجهز العشاء وهو في هذه المناسبة إما كسكسي أو مسرودة[٨] ويوزع الشربات على الحاضرين. ويحضر المزين في هذا اليوم ليفك الرباط ولا ينقط المزين في هذا اليوم، ويتناول أجره عن عملية الطهور في اليوم السابع وذلك حتى يضمن أهل المطهر حضوره لمتابعة الجرح والغيار عليه.

وننتقل الآن إلى بيئة مختلفة وهي واحة سيوة. تتم طهارة الطفل في الصباح الباكر لتلافي حرارة الجو ويكون الطفل مرتديا جلبابا أبيض جديدا ومشغولا بخيوط حريرية على الصدر، ويمكث الطفل في الفراش، وتقام مأدبة يحضرها الأقارب والأحباب ويكون عدد الحاضرين حوالي من عشرة إلى عشرين فردا وتقوم السيدات بعمل زفة للطفل حيث يطبلن ويغنون داخل المنزل. ولا يوجد طهور جماعي ولكن إذا كان للأب أكثر من ولد فيمكن أن تتم طهارتهم سويا وتدفن القلفة في الصحراء. وفي ثالث يوم بعد صلاة العشاء في جامع الناحية يعلن أن فلانا قد طاهر ابنه فلان وأنهم سيذهبون إليه بعد الظهر. ويدفع الناس نقوطهم في الجامع حيث يأخذه كبيرهم ويكتب الأسماء والمبالغ في كشف. ويذهبون بعد صلاة ظهر اليوم التالي للمباركة قائلين: "مبروك مبروك عقبال الصيام والفرح". ويستمر توافدهم للعشاء، والسيدات تعطي نقوطها لأم الولد وهو عبارة عن نقود أو شاي وسكر وغير ذلك. وبعد أسبوع يذبح جدي أو تشترى لحمة حيث يطهى اللحم. أما الأمعاء والطحال فتوضع على قدر مساو لها من دشيش القمح أو الشعير، وتطبخ وهي ذات طعم لذيذ ويسمى هذا اليوم بيوم الدشيشة. وتوزع على الأطفال حلاوة وسكر وملبس. وتتراوح عظمة الاحتفال حسب مكانة الطفل، فإذا كان الطفل الأول يكون الاحتفال والفرحة به كبيرة، أما إذا كان ثالث أو رابع ابن فالفرحة به بسيطة. ولا يحتفل بطهور البنت. والآن لا زالت عملية الطهور والاحتفال تتم كما كانت وإن كان الذي يقوم بالطهور الآن في غالب الأحوال الطبيب ويمكن أن يحضر إلى البيت ويطاهر الطفل ولا يتفق على أجر ولكن يأخذ "شوية تفتوفه" (أي نقود).

وجنوب شرق سيوة بحوالي مائة وثلاثين كيلومترا وعلى حدود منخفض القطارة توجد واحة جارة أم الصغير في بقعة من أجمل بقاع مصر حيث تتناثر بها عيون الماء حوالي إحدى عشرة عينا تروي سبعين فدانا تقريبا حاصلاتها الرئيسية: البلح والزيتون، كما كانت إحدى محطات

---

[٨] المسرودة هي نفسها القادوسية وهي عبارة عن رقاق يقطع إلى قطع صغيرة وطريقة الطهي كالكسكسي.

القوافل بين سيوة ومطروح. هذه الواحة نمط جيد لعزلة المكان والسكان الذين يبلغ تعدادهم حوالى مائتين وستين فردا ولا تصلها بسيوة أو مطروح أو أي مكان خطوط منتظمة أو غير منتظمة، ولم يلوثها إرسال التلفزيون أو أخبار الصحف فهي في معزل؟ وإن كانت هذه العزلة غير تامة، حيث أصبح الآن كثير من أهلها يسافر إلى سيوة ومطروح لقضاء حوائجهم وأيضا هناك البعض منهم يعملون في بعض المدن المصرية إن كان عددهم قليلا. ويتخاطب أهل الجارة فيما بينهم باللغة السيوية.

ومثل سيوة لابد من إجراء عملية الطهور (التحليل) في الصباح الباكر حيث يجلس الولد (العويلة) فوق قصعة، ولمداواة الجرح كان المطاهر يردم في الرمل أو يداوى أيضا ببعر الماعز. والسن التي تجرى فيها عملية الطهارة تتراوح بين خمس وعشر سنوات. وفي أثناء الطهور تسمع طلقات النار ابتهاجا. وتدفن القلفة في الرمل، وغالبا ما كانت عملية الطهور تتم بصورة جماعية حيث يحضر المزين من سيوة ويأتي مرة واحدة في السنة يحددها أهل "الجارة"، ثم يعلم أحد أبناء الواحة. والآن تتم طهارة بعض الأطفال في سيوة أو مطروح. وعندما يكون العدد كبيرا يحضر المطهر إلى الجارة. في يوم الطهور تذبح شاة أو أكثر، وعند ما يكون هناك أكثر من أب له أبناء يجرون عملية الطهور – فمن الممكن أن يشتركوا في شراء شاة أو أكثر – وهذاحسب المقدرة، ويعزم أهل الجارة على الغذاء. وفي ثالث يوم يحضر الرجال والنساء لتقديم النقود (النحيلة) وذلك حسب المقدرة أيضا، فالرجال يقدمون النقود والنساء يقدمن هدايا عينية مثل البيض والشاي والسكر والأرز وغير ذلك. وفي سابع يوم تتجمع السيدات والبنات في منزل المطهر حيث يطبلن ويزمرن مصاحبات ذلك بالغناء. ويلبس الولد في ذلك اليوم جلبابا أبيض من قماش البفتة (البيسة) ويذهب مع أصحابه أخذين معهم فول سوداني وحلاوة وقصعة بها أرز، إلى مقام سيدي ياجة[٩] حيث يأكلون ذلك هنال ويقرأون الفاتحة ويعودون[١٠].

ونترك الجزء الشمالي من الصحراء الغربية منطلقين تجاه الجنوب حيث واحة باريس بالواحات الخارجة وواحة القصر بالواحات الداخلة. وتتشابه الحياة الاقتصادية في باريس والقصر مع الحياة الاقتصادية في سيوة والجارة حيث يقوم الاقتصاد على الزراعة، وإن كان يوجد تنوع في الحاصلات الزراعية بجوار النخيل، والأرض أخصب والمياه أعزب واحتكاك واحتي باريس والقصر عادة بأهل الصعيد الذين يفدون هناك للعمل والإقامة حيث: أنشئت لهم قرى جديدة خاصة بالخارجة بالإضافة الى وجود نسبة كبيرة منهم تعمل بالقاهرة ونسبة أقل بمدن الصعيد.

وهنا في باريس التي تقع على خط واحد مع كوم أمبو بأسوان، تذكر السيدة "أم عمر" أن عملية الطهور كانت تتم وعمر الولد يتراوح ما بين خمس وعشر سنوات، والاحتفال بهذه المناسبة قاصر على الولد. أما البنت فليس لها احتفال لدرجة أن الجيران والأب والإخوة لا يعرفون بموعد طهارتها. ويبدأ الاعداد للطهور قبل العملية بثلاثة أو أربعة أيام فيجهزون الغلة حيث تغسل وتغربل وتطحن. ويذهب أفراد مكلفون بجمع الحطب استعدادا للخبيز والطبيخ مقابل تقديم الغذاء لهم، ويسمون "الزوادة" وعند ما يحضروان يقولون: اوين الحطابة، أي أن الحطابة قد وصلوا. فتخرج النساء وتقف أمام الباب مزغردة. ويخطف البعض أعوادا من الحطب تفاؤلا بأن يحدث لهم فرح قريب أو لكي يأتيه الفرح. ويتناول الحطابة الغذاء ويكون عادة شعرية وبلح ويأخذ كل واحد منهم كعكتين ويسمى "المعلوم". ويبدأ خبز العيش في اليوم التالي لجمع الحطب، وثالث يوم يطبخون حيث تحضر النساء للمساعدة وتحضر معها عيش. ويذبح أهل "العريس" – وهو الاسم الذي يطلق

---

[٩] سيدي ياجة أحد الأولياء، له مقام بالجارة وموقعه أسفل القرية القديمة حيث كانت مبنية على صخرة عالية وبالنسبة للقرية الجديدة فموقعها في مكان مرتفع عنها حيث أقيم على ربوة عالية ولا يعرف تاريخ إقامته.

[١٠] سنوسي عبدالجواس، مزارع، ٧٣ سنة، جارة أم الصغير، الجامع: شوقي عبد القوي، أبريل ١٩٩٥.

على الولد – جديا أو أكثر أو خروفا أو أي شيء حسب المقدرة. ويدعى الأهل والجيران حيث يقدمون النقوط، فمنهم من يقدم نقودا أو قدرا من القمح أو الأرز أو اللحم، والنساء يقدمن الشاي والسكر والأرز والقمح والخبز. ويبدأ تناول الطعام من حوالي الساعة العاشرة صباحا حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، وبعد ذلك تتناول السيدات الغذاء. ويقوم نفس من قام بخدمة الرجال بخدمة الحريم، وهم عادة من أهل العريس. وفي أثناء ذلك يكون والد العريس (المطهر) واقفا يرعى توزيع الطعام، فإذا نقص طبق أو صنف أمام أحد من المدعوين، طالب بملئه. وبعد صلاة المغرب يحضر الرجال الذين لم يحضروا في فترة الصباح، وبعد العشاء تحضر النساء ممن لم يتناولن الطعام قبل ذلك. وبعد صلاة العشاء يقام مولد حيث يحضر الموالدية للإنشاد وقراءة المولد، يشارك الحاضرون فيه. وفي هذا اليوم – ويسمى يوم الجلسة – يعصفر[١١] الجلباب الحرير من الأكمام والذيل ولا بد أم يكون الجلباب أبيض اللون، ويطلق على الجلباب اسم "الرومية" ولا يعرف سبب إطلاق هذا الاسم. كما تحنى يدا العريس وقدماه صباح اليوم التالي ويسمى يوم المدة فيطبخ عدس ويخبز فطير[١٢] كما تحضر المدعوات فطائر[١٣] معهن. ويحضر العراسة[١٤] لتناول الغذاء. وفي العصر يركب العريس حمارا[١٥] ويرتدي جلبابه الأبيض المعصفر (الرومية) وعقد مشاهرة ملضوم من خرز يحضرونه من الجبل اسمه "كفري" وذلك حتى لا يشاهر الولد أي لا يمرض، ولكي يطيب جرحه سريعا ولمنع الحسد، ويمسك بيده غصنا أخضر من شجر الليمون[١٦]. وتبدأ الدورة فيلفون القرية من اليمين بالغناء والطبل والزمر وزغاريد النساء اللائي يتخذن أماكنهن خلف الجميع بعد العريس والعراسة والرجال. ويقف هذا الموكب أمام كل بيت حيث يقدم لهم أهل البيت التحية التي هي قمح أو ذرة أو بلح وغير ذلك. والبعض يقدم لهم الشاي والأخر ينثر عليهم البلح والملبس والفول السوداني. وبعد انتهاء الدورة يعودون الى المنزل ولا تذهب هذه اللفة لزيارة ولي أو مقام للتبرك به. ويحضر الحلاق الى المنزل ومعه غالبا أربع قفاف كل قفة لصنف من الحبوب التالية: القمح والذرة والشعير والبلح. ويبدأ الحلاق بالخلافة على المطاهر فيقول مثلا: خلف الله عليك يا أحمد وفلان بيصبح عليك بخير، وهكذا. وينقط الحاضرون الحلاق بالنقود والحبوب وذلك بين الغناءوالطبل الآتي صوته من عند الحريم حيث تكون أم العريس وأخوته مرتديات أزهى ملابسهن متحليات بما عندهن من ذهب وفضة ولا بد من حضور الأقارب. وبعد الحلاقة يقوم الحلاق بمطاهرة[١٧] الولد. ويمكن أن تتم عملية المطاهرة لأكثر من ولد وعادة ما تتم عملية القطع – كما تسمي هناك – ساعة المغرب. وتدفن القلفة تحت نخلة ليكون باسقا مثل النخيل أو عند صائغ ليكون المطهر ثريا مثله أو عند مدرسة ليكون محبا للعلم أو تدفن تحت الزير أو بلاص ماء اعتقادا

---

[١١] العصفر نبات يزرع في مصر يعطي لونا أقرب الى اللون البرتقالي القائم ويستخدم أحيانا لتلوين المخللات. ويعصفر الجلباب لتميز المطاهر حتى لا تلمسه الأولاد خوفا عليه.

[١٢] الفطير يشبه الرقاق يسمى هناك فطيرا.

[١٣] قديما في مولد المطاهر كانت الحريم تأخذ فطيرا أبيض معهن (مثل الرقاق من دقيق قمح وملح وميه) وعيشا ويعطينه لوالدة المطاهر.

[١٤] العراسة مجموعة معروفة من الرجال والشباب في باريس مهمتهم زف العريس وإحياء الليالي الملاح والمناسبات الجميلة وآلاتهم عبارة عن طبل ودف ورق.

[١٥] أو فرسا أو جملا وتزين الركوبة بالليمون ويوضع عليها حرام من الصوف المزخرف.

[١٦] ويمكن أن يتم طهور مجموعة من الأطفال في بيت واحد سويا أو أطفال عائلة واحدة ويعمل فرح واحد لهم جميعا وكل واحد أو أثنين يركب ركوبة.

[١٧] إذا كان المطاهر وحيدا يطلب المزين ديكا ليقطع جزء من عرفه مع المطاهر اعتقادا بأن هذا يمنع العين عن الولد.

بأن ذلك يبرد الجرح؛ وهناك من يعلقها في رقبته مع عقد المشاهرة حتى لا يصاب بالعين. وعادة ما يهب له أحد أجداده لأبيه أو لأمه نخلة بلح أو زمنا في عين مياه حيث أن الملكية في باريس للمياه وليست للأرض[١٨].

وتذكر السيدة حامدة ساسة من المكس القبلي، إحدى عزب باريس[١٩]: "أنهم – كانوا على حد تعبيرها – تدبح له ذبايح ونغني عليه وناخذ ثلاث شهور وإحنا نخبط العرس وندق عليه. والله أنا كا معايا واد (ولد) ثلاث شهور يهل الهلال يلاقي الهلال والفرح يدق وده قبل المطاهرة. ونسبع لهم ساعة ما يتم سبع تيام نعمل لهم سبوع وتتعمل لهم ليلة فرح بعد الطهور كمان ده زمان كنا نرسل لأهل العريس فطير وعيش وشاي وسكر وحلاوة وكل ده قاعد (مستمر) بس الفطير اللي بطل ما حدش (لا يوجد أحد) له مقدرة ع الفطير"[٢٠].

والآن لم يعد الاحتفال بالطهور يأخذ هذا الشكل الاحتفالي حيث يقوم الطبيب بعملية الختان غالبا، وإن كان هناك احتفال فيكون قاصرا على الأهل ولا زال الناس الى الآن ترسل هداياها السابقة ما عدا الفطير لأنه لم تعد هناك مقدرة على عمل الفطير. كذلك كانت عملية الطهور يمكن أن تتم لمجموعة من الأولاد في يوم واحد والآن أصبحت فردية. وهناك بعض الأفراد القلائل الذين يحتفلون بالطهور، بنفس الشكل القديم الى حد ما وإن كان لا يستغرق هذا الزمن الاحتفالي، ولكن يمكن أن تكون هناك دورة حول القرية وغناء وخلافه وقلة مشاركة[٢١].

ومن الأغاني التي تغنى للمطاهر في باريس:

المؤدي دخل المعلم داري موسه دهب رنان
المرددين دخل المعلم داري موسه دهب رنان
المؤدي دخل المعلم عشية لابس ملابس حجية
يا عريسنا هات الطبلية وطلع الشاي للخطار (الذين حضروا)
المرددين دخل المعلم داري موسه دهب رنان
المؤدي دخل المعلم في الصباح وإحنا ناويين الأفراح
يا عروسة هات المفتاح وافتحي الباب للغالي
المرددين دخل المعلم داري موسه دهب رنان
المؤدي وأمه قاعدة ومتكية ولابسة الحلق أبو مية جنيه
وأبوه شايل الصينية يفرق شربات الغالي
وأيضا
مؤدي يا أمه افتحي بابنا خليه يجبنا الهوا
مرددين يا أمه افتحي بابنا خليه يجبنا الهوا
مؤدي فتحت باب الرسول وطلعت فيه البخور
داخل المعلم يقول اجرح وأرش الدوا

---

[١٨] أم عمر مصطفى مهاود، ٤٥ سنة، باريس، شريط ٥ وجه ٢ وشريط ٦ وجه ١، الجامع: شوقي عبد القوي عثمان ١٩٩٣.

[١٩] تبعد عن باريس حوالي تسعة كيلومترات.

[٢٠] حامد ساسه بري، ٧٠ سنة، المكس القبلي، شريط ٧ وجه ٢، الجامع: شوقي عبد القوي عثمان ١٩٩٣. كان يوجد هذا الشكل من الاحتفال في الخارجة، الخارجة نسخة ٣١ عن الأصل، ٦٣٢ ج ١، ١٩٧١، الجامع: سيدة رشاد مركز الفنون الشعبية. ونجد في بغداد أن أهلها لا تبيحون عملية الختان لطفل واحد وإنما يوجبون اختتان أحد أخواته أو أقربائه، وإذا كان عدد المختونين زوجيا فلا بد من ذبح ديك ليكونوا ثلاثة. كما شاع عدم ختان الولد لوحده إلا بعد قطع "عرف الديك" وذبحه بعد ذلك (القصاب ١٩٨٥:١٢٩).

[٢١] أم عمر مصطفى مهاود، نفس المصدر.

مرددين دخل المعلم يقول خلي الخيات (الاخوة) دول سوا
دخل المعلم يقول خلي الشقايق (الأشقاء) سوا
وفي أثناء خلافة المزين على العريس تغنى بعض الأغاني منها:
مؤدي ازعق يا علي من على المجدية (نوع من النخيل ذو ارتفاع كبير)
مرددين ازعق يا علي من على المجدية
مؤدي واحلف يا علي ما خد إلا شاشة
ولا ولا الجنيه الأخضر ولا فتحة راسه
ولا القفاف معبية (مملوءة) ومحلية[٢٢].

واحتفالات الطهور بالقصر[٢٣] تشبه الى حد كبير مثيلتها في باريس. وكان موعد الطهور غالبا ما يكون مصاحبا لعيد الأضحى. وكانت عملية الطهور تتم بأن يجلس الولد على ماجور[٢٤] يوضع مقلوبا وتحته فرخة يأخذها الحلاق بعد إتمام عملية الطهور. ويؤتى بوعاء فخار كبير يملأ بالمياه ويلقي الحاضرون بقطع نقود معدنية فيه نقوطا للمزين. وفي القصر أحيانا ينذر لو عاش الولد ليوم طهوره أن يأخذه أبوه ليزور مقام الشيخ فلان، وفعلا بعد الطهور يقومون بزيارة مقام الشيخ ويحنّون حوائط المقام بالحنة ويطلقون البخور داخله وحوله. ويجدر بنا أن نذكر كيفية إجراء عملية الطهور: "يضع المزين على الجزء الذي سيقطع علامة بقلم كوبيا. ويدفع تمرة الولد للداخل بقطعة خشب ناعمة كالمرود ويشد الجلد للخارج ويأخذ علامة بالكوبيا على المسافة البعيدة عن التمرة حتى لا يقطع التمرة. وبعد أخذ العلامة يحضر المقص أو الموسى ويقطع هذا الجزء ثم يضعه في شادوفة[٢٥] مملوءة بالطين أو الرمل ويدفن أهل الطفل قطعة الجلد فيها ويروونها بالماء أو تدفن تحت جرة المياه في الطين اعتقادا بأن دفنها في الطين يخفف الألم"[٢٦].

وبالنسبة للبنات فالتي تتولى طهارتها هي الداية ولا يحضر الرجال أو حتى والد البنت هذه العملية حيث تتم في سرية وتنقط الداية بنفس الطريقة السابقة ومن السيدات فقط. ويكون عمر البنت عند الطهارة أربع أو خمس سنوات.

ومن الأغاني التي تغنى في تلك المناسبة في القصر:

طاهر يا مزين واصحي تبكيه
ده عزيز على أمه يا رب يخليه
طاهر يا مزين وعدتك مفروطة (أي خارج الكيس)
طاهر يا مزين وخد الفوطة

وكان عصر عيد الأضحى من الأيام المفضلة للختان، فتتم دعوة الأهل والأقارب والمزين على الطعام. وغالبا ما تكون هناك ذبيحة في ذلك اليوم.

ويلبس المطاهر جلبابا أبيض اللون مرسوما عليه بالخيوط الملونة أشكال مثل الجمل والنخيل، وفي أثناء العملية تصدح أرجاء المنزل بالغناء والطبل والزغاريد. وينقط المزين بالنقود من

---

[٢٢] أم فريد الريفي، ٤٠ سنة، شريط ٨.

[٢٣] القصر قرية بها كثير من الآثار الإسلامية وهي إحدى قرى الواحات الداخلة واقتصادها قائم على الزراعة، كما تجد بها كثير من الحرف كحرفة الفخار والحدادة والحصير.

[٢٤] الماجور: وعاء كبير من الفخار.

[٢٥] الشادوفة: غلق صغير من الخوص.

[٢٦] حلمي سنوسي، ٤٢ سنة، موظف بالإدارة الصحية، شريط ٧ وجه ٢ الجامع: شوقي عبد القوي ١٩٩٢. ماهر عز الدين يوسف، مدرس لغة عربية، ٤٠ سنة، شريط ٧ وجه ٢ الجامع: شوقي عبد القوي ١٩٩٢.

المدعوين بالإضافة الى أخذه للأجر المتفق عليه وأيضا قطعة من القماش وقطعة صابون أو أكثر أو أي شيء من قبيل ذلك. وتدفن القلفة في طينة باردة اعتقادا بأن وضعها في الطين البارد يجعل الجرح باردا ولا يؤلم الطفل. والآن بعد أن انتشرت الوحدات الصحية اختفى دور المزين أو كاد. واختفت معه غالبا تلك المظاهر المصاحبة للختان[٢٧].

الختان تاريخيا واجتماعيا ونفسايا وطقسيا

فيما سبق قدمنا وصفا موجزا لاحتفالية الختان كما تجري في مناطق تمثل مختلف الثقافات الطمصرية المعاصرة وعلى أساس الحضور المباشر لمثل هذه الاحتفاليات، وفيما يلي سنعرض للجوانب المشار إليها.

وكما هو ثابت تاريخيا فقد عرف الختان في مصر القديمة ثم أخذه عنهم الفينيقيون والسوريون كما ذكر هردوت (١٩٨٧:١٢٤، ٢٢٠). ولما كانت تلك الممارسة مفيدة من النواحي الصحية والأخلاقية فقد أقرتها الديانات السماوية، ولذلك صار الاحتفال بها. ولا نتفق مع عبد الحميد يونس (١٩٨٣) في اعتباره الختان اختيارا للقدرة على تحمل الألم ولكن يمكن اعتبار أن الختان - خاصة في مرحلة سنية متأخرة - فرصة لإظهار الرجولة والمقدرة على تحمل الألم. فهو لا يجرى كاختبار ولكنه أمر لازم، كما ينتهز البعض فرصة إجراء الختان ليحاول إكساب الطفل ميزة عدم الخوف من أحد، ورد ما يعتبره اعتداء - وهو عملية الختان _فيقذف الحلاق ببيضة تعطي له كما عند عرب مطروح.

ولا نستطيع الذهاب مع دي شابرول في مقولته بأن "الختان يعتبر نهاية مرحلة الطفولة"، خاصة أنه ليست هناك سن معينة لإجراء تلك العملية، التي يمكن أن تتم في الأيام الأولى أو في أي سن من عمر الولد أو حتى بعد العاشرة[٢٨]. والاختلاف في سن الختان يوجد في القرية الواحدة، بل في المنزل الواحد حيث تختلف السن التي تجرى فيها تلك العملية بين الأخوة حسبما يراه رب الأسرة. وليست هناك شواهد يقينية عن الذي يحكم سن إجراء عملية الختان. ففي البحث الميداني نجد أن طفلا قد ختن وهو في الثالثة وختن أخوه وهو في السابعة. ولكن هناك مناسبات تتم فيها تلك العملية استجلابا للبركة واستبشارا، فيمكن أن تتم أثناء مولد لولي من أولياء الله بالمنطقة، أو في مولد أحد الأولياء المشهورين كالحسين والسيد البدوي أو مولد لأحد القديسين كماري جرجس أو الست دميانة بكفر الشيخ. كما تتم أثناء مناسبات زواج أحد أفراد الأسرة أو في أحد الأعياد أو المناسبات الدينية، وفي هذه الحالة غالبا ما يكون الغرض منها خفض النفقات لما هو موجود أساسا من طعام في هذه المناسبة.

ويلاحظ أن موعد الختان في المدينة غير ثابت، فواضح أنه يجرى في أي وقت، ولكن في الريف أجمعت الأغلبية على أنه يجرى في شهر سبتمبر بعد فيضان النيل، فلماذا بعد فيضان النيل؟ تعددت الإجابة، فهناك من أجاب بأنه عند ما تميل مياه النيل للحمرة يطيب الجرح بسرعة، والبعض أجاب بأن الجو يصبح قليل الحرارة وأكثر برودة من أغسطس، وهذا يجعل الجرح يشفى سريعا. أما ليدر فقد ذكر أن الختان كان يجرى في سبتمبر بعد موسم الحصاد حيث تتوفر النقود.

وبالنظر إلى أحوال الفلاحين في شهر سبتمبر نجد أن الفيضان يكون قد بدأ قبل أسابيع، وأن الفلاح انتهى تقريبا من تذرية القمح والذرة لازالت في الحقول، وكذلك القطن حيث يجمع في شهر أكتوبر، وهذه هي الحاصلات الرئيسية له. ومن المعروف أن القمح ليس محصولا نقديا بالنسبة لفلاح ذلك الزمن أو الآن، حيث كان يخزن أكثره للاستهلاك، أما المحصول النقدي للفلاح فكان القطن. وما ذكر عن اعتقاد المصريين في مياه الفيضان وخواصها وطراوة الجو، ربما يكون هذا

---

[٢٧] ماهر عز الدين يوسف، نفس الشريط.

[٢٨] لم يعد يتم الختان في تلك السن المتأخرة الآن.

ما ثبت في أذهانهم ووقر في صدورهم، دون تمحيص عن الأسباب الحقيقية، أو هو التفسير الأسهل إليهم.

ولكننا نرى أن أفضلية شهر سبتمبر لإجراء الختان ترجع إلى أن الفلاح ليس لديه عمل كاف في ذلك الوقت، والفراغ يصبح أكثر. هذا عن الفلاح في الوجه البحري، أما فلاح الصعيد أو الوجه القبلي فالأرض تكون قد غمرتها المياه ولا عمل له تقريبا. وبخصوص برودة الجو في سبتمبر فهناك أشهر أشد برودة أصلح للجرح فعلا، فلماذا لا تتم في تلك الشهور الباردة؟ ذلك لأن الليل طويل وبارد في تلك الشهور بالإضافة إلى عدم وجود كهرباء في ذلك الحين والتي لا تشجع على السهر، أما في الصيف فلحرارة الجو تمتد السهر خارج الدور وأمامها. من هذا نجد أن الذي جعل شهر سبتمبر موعدا مفضلا للختان هو الفراغ الذي كان يلم بالفلاح وعدم وجود عمل لديه في تلك الفترة وقبل انشغاله بجمع القطن، إذ يمكننا القول أن فراغ الفلاح هو الذي تحكم في موعد إجراء عملية الختان.

وكان الاحتفال يتم قبل الختان في بعض المناطق وبعد الختان في مناطق أخرى وتتحكم مكانة الولد إذا كان هو الأول بعد أخوة بنات أو بعد طول انتظار في ثراء الاحتفال. وغني عن الذكر أن ثراء الاحتفال يرتبط ارتباطا وثيقا بحالة الأسرة المادية ومكانتها الاجتماعية. فكلما زاد ثراء الأسرة كلما كان الاحتفال باذخا والعكس صحيح. وطبعا هناك حالات لا ينطبق عليها ذلك كثري بخيل أو فقير سفيه.

وتختلف مدة الاحتفال بالختان من منطقة لأخرى ففي بعض المناطق تستمر يوما وفي مناطق أخرى تستمر أكثر من يوم وربما تصل إلى شهور كما كان يحدث في المكس القبلي بالخارجة. ويلاحظ أن مدة الاحتفال تزيد كلما زاد الفراغ كما في الواحات في الصحراء بالإضافة إلى العزلة إلى حد ما. ومن هنا يمكننا القول بأن تلك الاحتفالات هي ثقافة من ثقافات وقت الفراغ كالألعاب والمسامرات وغيرها، فوقت الفراغ يلعب دورا هاما في تكوين المأثور.

وبخلاف الاحتفال بسبوع الطفل نجد هنا أن الختان يمكن أن يجرى لمجموعة من الأطفال في وقت واحد ويحتفل بهم جميعا مرة واحدة[٢٩]، فالعنصر الحاكم هنا هو الرغبة - بخلاف السبوع - الذي يحكم موعده تاريخ الميلاد. وخاصية جماعية الختان أخذ بها بعض الحكام والكبراء في فترات تاريخية مختلفة حيث كانوا يدعون الناس لختان أطفالهم مع طفلهم على نفقة الداعي الذي يقدم الطعام والشراب للكافة بالإضافة إلى إجراء الختان. هذا فعل ظاهره على ما يبدو العطف والتصدق على أفراد الشعب وباطنه محاولة كسب الرأي العام والدعاية في ذلك الوقت. كما انتهز البعض هذه المناسبة لإيفاء نذر أو العطف على الفقراء والمساكين بإطعامهم حيث يرسل الطعام إلى مقامات الأولياء لكي يتناوله هؤلاء وغيرهم.

كذلك نلاحظ أن الاحتفال قاصر على الذكور دون الإناث فختان الإناث يتم سرا لدرجة أن بعض الرواة يذكر أن والد البنت لا يعلم بختانها. ويبدو أن ذلك راجع إلى الاعتقاد السائد لدى الكافة بأهمية الذكر على البنت وهذه الأهمية تعود إلى أسباب عدة، منها أن الذكر قوة مضافة إلى قوة العمل الاقتصادي، والذكر أيضا عزوة، وكذلك هو الذي سيحمل اسم العائلة، كما أنه سيحافظ على الأملاك سواء زراعية أو عقارية داخل الأسرة.

وتؤكد لنا الممارسات التي تصاحب الختان هلع المصريين من الحسد وخوفهم منه، ولذلك تتعدد الإجراءات الوقائية التي يتخذونها لمنع هذا الشر الغير منظور. وسيد هذه الإجراءات في هذه

---

[٢٩] في قرية الصوامعة بسوهاج لا يحتفل جماعيا بالختان ولكن كل طفل يحتفل به بمفرده رغم أنه من المعروف أنها منطقة طاردة. ولا نعرف إذا كان هذا التقليد متبعا في قرى الصعيد أم لا ولم يبرر الراوي ذلك وإن كنا نميل إلى أن هذا اعتزاز بالمولود الذي سيضاف إلى قوة الأسرة التي تحكمها العصبية.

المناسبة وغيرها هو الملح الذي يستخدم لمنع العين الشريرة الحاسدة وذلك بالنثر حتى يحجب عن تلك العين الأشياء التي يخاف عليها من الحسد. وتكثر الأقوال الشعبية التي تشير إلى وظيفة الملح في المعتقد الشعبي مثل: حصوة في عين اللي ما يصلي على النبي. وفي الأغنية الشعبية < "يا أم المطاهر رشي الملح سبع مرات" ويبدو عن هذا المفهوم جاء من أن الملح مادة حافظة وأنه حاذق، فبوضعه أمام العين الحاسدة يحجب عنهاما لا يراد له أن يحسد.

كذلك عدم إجراء احتفال الختان إلا في ثالث يوم أو سابع يوم بعد أن تتم عملية الختان التي تجري سرا، وأيضا قلفة المطهّر تعلق له في كمه أو تدفن في مكان بعيد أو تحت نخلة لينمو الطفل باسقا مثلها أو تدفن عند دكان صائغ ليصبح ثريا مثله. ويجدر بنا أن نلاحظ أنه في سبوع المولود يلف بالمولود داخل المنزل لكي يتعرف على المنزل، ولكن في حفل الختان الذي يتم للطفل وهو أكبر سنا يزف الطفل حول القرية أو حول الناحية، ويبدو أن ذلك إعلان على أن الطفل قد انضم إلى الجماعة في الناحية، ولكي يتعرف على ما حوله ويعرفونه. ولا يقوم بختان الطفل أي حلاق في القرية ولكنه حلاق مخصوص، اكتسب شهرته من مهارته، وكان يطلق عليه حلاق الصحة، فهو الذي يختن أطفال القرية – مسلميها ومسيحيها – ويحقن المرضى، وربما يوجد حلاق آخر معه ولكن ليس كل حلاقي القرية يقومون بإجراء هذه العملية.

يدفعنا ذلك إلى القول بأن الممارسة من ختان واحتفال مصاحب له تؤكد تشابهها لدى كل من المسلمين والمسيحيين ويرجع ذلك إلى أن النبع الذي استقى منه المصريون ثقافتهم كان نبعا واحدا. فرغم أن تعاليم الديانة المسيحية تحتم ختن الطفل قبل التعميد الذي هو عادة يتم في عمر أربعين يوما فإنه جرت العادة على أن يتم ختن الطفل في سن الرابعة أو الخامسة كما كان يحدث قديما، وقد قال مصري مسيحي: "العادة تعلو على كل شيء".

أيضا نجد وحدة تلك الممارسة في جميع مناطق مصر المتباينة جغرافيا، والاختلاف فقط في بعض مظاهر الاحتفال ويوم الاحتفال، هل هو يوم الختن أو قبله أم ثالث يوم أم سابع يوم؟ ويرجع ذلك غالبا إلى عرف سنه أحد الأفراد في فترة سابقة وأخذ به الكل بعد ذلك. والأمر الملفت للنظر هو لون الزي الذي يرتديه المطهر وهو اللون الأبيض، حيث يعم هذا اللون جميع أرجاء مصر ولا ندري سببا لاختيار هذا اللون أو انتشاره بهذه الكيفية. وإن اللون الأبيض في التراث المصري هو اللون الذي يتفاءل به، مثل عبارة «ربنا يخليها سنة بيضه عليك» وأيضا عند التحية «نهارك أبيض». وكذلك هو لون ملابس الحجيج، وهو ذاهب ليتطهر من ذنوبه. وهو لون زي الخير في الحلم «رأيته لابس أبيض في أبيض». وهو لون فستان العروس في يوم زفافها.

ولكن ماذا عن احتفالات الختان الآن؟ في واقع الأمر أن المظهر الاحتفالى الذي عاش بيننا أكثر من ألف عام قد اختفى تقريبا من حوالي عشرين عاما فلم يعد يحتفل به أحد إلا نادرا خاصة في مناسبات الموالد. وإذا تساءلنا عن سبب اختفاء هذا التراث جاءت الإجابة بأنه لم يعد هناك وقت لهذا وأصبح الإنسان مشغولا طوال اليوم. وطبعا هذه إجابة خادعة، لأن وقت الفراغ الآن أكثر عن ذي قبل كما هو ثابت من الإحصائيات العالمية حيث لا يعمل الإنسان في مصر سوى سبع وعشرين دقيقة في اليوم فقط. ناهيك عن اكتظاظ المقاهي وازدحام الشوارع طوال اليوم تقريبا، ولكن أين الحقيقة. تكمن الحقيقة بصفة أساسية في أجهزة الإعلام التي أصبحت تجذب الناس حولها وتبث قيما وعادات غريبة عن الثقافة المصرية محاولة خلع جذور الإنسان المصري وتعريته من ثقافته التي عاشت وتوحدت معه آلاف السنين. ولا يعني ذلك أن كل الميراث الثقافي نافع ولكن هناك بعض العادات السيئة التي يجب أن نتخلص منها وأن نؤكد في نفس الوقت على العادات المفيدة. فشعب بلا تراث شعب بلا هوية. ولنتأمل تاريخيا في مقولة أن الإنسان لم يعد لديه وقت ليحتفل بمناسبة، حيث لم يتبق من احتفالات مصر سوى الاحتفال بالزواج واندثرت باقي الاحتفالات رغم ما في هذه الاحتفالات من فائدة في توطيد الصلة بين أفراد المجتمع الواحد، حيث يمد كل منهم يد العون

للآخر في تلك المناسبات وبذلك كان المجتمع كتلة واحدة عكس الآن حيث أصبح كل فرد جزيرة منعزلة بذاتها.

أما عن وقت الفراغ فنرى أنه الآن أكثر من ذي قبل. وإذا حاولنا أن نعقد مقارنة بين حاصل وقت الفراغ في العصور القديمة والآن على سبيل المثال فإننا سوف نخرج بالحقيقة التالية: امتلأت أوقات الفراغ لدى المصري القديم وهي التي تعقب الفيضانات بالاحتفالات بل إن الحضارة المعمارية التي نشأت في ذلك الوقت يمكن أن نسميها حضارة وقت الفراغ، فالأهرامات والمعابد الضخمة جميعها بنيت في وقت فراغ المصري. بل يمكننا الذهاب في القول إلى أن سمو الديانات المصرية القديمة ووصولها إلى الوحدانية إنما هو نتيجة التأمل الذي لا بد وأنه حدث في فترة الفراغ.

والآن أصبح المصري عاجزا حتى عن أن يفرح ويحتفل وينتج، وأهمل كل عاداته تاركا نفسه فريسة سهلة لثقافة الديسكو والهامبورجر التي تهدف إلى تدمير الشخصية الوطنية ليس للمصري فقط ولكنها موجهة لكل شعوب العالم. وهذا هو الاستعمار الجديد فلنحذر منه بالتمسك بالعادات والتقاليد ولنحاول إحياء ما أندثر منها وكان مفيدا.

المراجع

بلاكمان ١٩٩٥ = وينفريد بلاكمان، الناس في صعيد مصر. ترجمة أحمد محمود، دار العين، مصر.

الجبرتي، عجائب = عبد الرحمن بن حسن الجبرتي: عجائب الآثار، مطبعة الأنوار المحمدية بدون تاريخ.

دي نرفال، رحلة = جيرار دي نرفال، رحلة الى الشرق، ترجمة د. كوثر عبد السلام، الدار المصرية للتأليف بدون تاريخ.

صالح ١٩٦٦ = د. عبد العزيز صالح، التربية والتعليم بمصر القديمة، مصر.

عاشور ١٩٦٢ = د. سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، مصر.

القصاب ١٩٨٥ = فخري حميد القصاب: الختان في التاريخ والموروث الشعبي، مجلة التراث الشعبي، بغداد، العدد الفصلي الأول.

القلقشندي، صبح = أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، مصر ١٩٦٣.

كلوت بك، لمحة = كلوت بك، لمحة عاقمة الى مصر، بدون تاريخ.

لين = إدوارد وليم لين: عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم، ترجمة سهير برسوم، مصر ١٩٩١.

هردوت ١٩٨٧ = هردوت يتحدث عن مصر، ترجمة د. محمد صقر خفاجة، مصر ١٩٨٧.

الهواري ١٩٨٧ = د. محمد الهواري: الختان في اليهودية والمسيحية والإسلام، القاهرة.

وصف مصر = علماء الحملة الفرنسية جي. دي شابرول، وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، مصر ١٩٧٩.

يونس ١٩٨٣ = د. عبد الحميد يونس: معجم الفولكلور، مادة الختان، لبنان.

Leeder, S. H. 1918. *Modern Sons of the Pharaohs*. London.